الحياة
الأحد ١٧ آب (أغسطس) ٢٠١٤ الموافق ٢١ شوال ١٤٣٥ هـ العدد ١٨٧٦٢
ALHAYAT SUNDAY 17 AUGUST 2014 ISSUE NO 18762

افتراق الماضي بين الآشوريين والكلدان

مسيحيو العراق بين اضطراب الإقامة واضطراب التاريخ... "داعش" ليس السابقة الأولى

حسين جمو

■ مع النزوح الكبير لغالبية المسيحيين من الموصل، بدا يرتسم السفر الأخير لمسيرة أتباع الديانة المسيحية في العراق. أخذ النازحون ما خف حمله وغادروا ديارهم إلى أقرب نقطة آمنة: كردستان. يمكن تتبع مسيرة عذابات المسيحيين تاريخياً مع الآشوريين، ذلك أنه وخلافاً لأقرانهم الكلدان الأكثر عدداً، أصحاب تجارب مريرة في النكبات التي لحقت بهم. وتجلت النزعة القومية الآشورية ثلاث مرات خلال السنين المئة الأخيرة، تحديداً مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانتهت في نكبة سميل عام ١٩٣٣.

كان مفترضاً أن تكون هناك محاولة رابعة خلال السنوات العشر الماضية. لكن مشروع إقليم نينوى أخفق ولم يحظ بفرصة حتى للنقاش العام. كان المشروع يقضي بإعادة إحصار الجزء المسيحي التاريخي من سهل نينوى وهي تشمل منطقتي الحمدانية وتلكيف شمال شرقي الموصل بشكل أساسي، مع اجتهادات مبالغ فيها بأن يضم قضاء الشيخان الواقع ضمن إقليم كردستان العراق حالياً وأجزاء واسعة من محافظة دهوك.

تولى تنفيذ هذا المشروع السياسي الآشوري سركيس آغاجان منذ عام ٢٠٠٤ حيث كان يشغل منصب نائب رئيس حكومة إقليم كردستان، وكانت الأموال التي صرفت على المشروع من الإقليم وفق اعتراف سركيس نفسه عام ٢٠٠٩. بعدها اختفى صاحب المشروع ليقيم في عزلة بعيداً من الإعلام في إحدى قرى «السهل المسيحي». صرفت ملايين الدولارات على الجزء المتحرر من عملية استحداث الإقليم، تضمنت تشييد ١٠٥ قرى، استوعبت ٢٠ ألف مسيحي هجروا بغداد والموصل بعد موجة تفجيرات طاولتهم منذ عام ٢٠٠٣.

الخلافات التي تشتت بين الآشوريين أنفسهم كانت كفيلة بوأد المشروع عدا عن معارضة بغداد. فالحساسية التاريخية التي يراها معظم الآشوريين مع الأكراد تجعل من الأخيرين نسخة مستحدثة من «داعش»، ويرون في سيطرة البيشمركة على أجزاء من الحمدانية وتلكيف «احتلالاً كردياً»، وفق شعارات رفعها الآشوريون في المهاجر.

كانت - وربما لا تزال - هناك فرصة للإبقاء على موطئ قدم جغرافي للمسيحيين في العراق عبر إقليم صغير وإلحاقه بكردستان لاحقاً، كما كان يخطط سركيس آغاجان، وإلا فإن أفضل عرض مقدم هو قبول العرض الفرنسي باللجوء إليها إذا أصروا على رفضهم عرض «الدولة الإسلامية» في الجزية أو الإسلام أو السيف مع ترك فرصة للمغادرة.

وإذا أردنا رصد التجربة المسيحية في العراق من خلال الآشوريين، فذلك مرده إلى عدم انفصال الديني عن السياسي والعسكري ويتبدى ذلك بوضوح من حركة الدوران الديموغرافي التي فرضتها عليهم نكبة الحرب العالمية الأولى وما تلتها.

مصطلح «مسيحيي الموصل» حديث بمعناه الحالي. ليس كل من نزح عنها هو موصلي تاريخياً وليس الآشوري سليلاً لا شك فيه لإمبراطورية آشور بانيبال، ولا الكلدان من رعايا نبوخذ نصر. لكن كلاهما يعتبر نفسه كذلك.

بنى الآشوريون النساطرة رؤاهم القومية على الريف وليس المدينة. وخلال المئتي سنة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية كانوا بمثابة رأس الحربة المسيحية. كان الاستقرار في المدينة بمثابة نهاية لحلمهم الكياني. لم تكن غايتهم الأمان، بل الكيان، على عكس أقرانهم الكلدان الذين استقر قسم كبير منهم في المدن (بغداد - الموصل - البصرة)، بمنأى الكلدان بأنفسهم عن السياسة المتطلعة إلى الخصوصية، مستفيدين من تجارب مريرة في التاريخ لم ينسوها كما في ١٢٩٥ عندما تعرض المسيحيون في الجزيرة والموصل وتبريز إلى تدمير منهجي نتيجة تعاطفهم مع القائد المغولي المتمرد «مايدو» ضد امبراطور المغول أرغان وفق تفاصيل يرويها ابن العبري في مخطوطة تاريخ الأزمنة. حينها تم فرض اللباس المميز عليهم (الزنار في الوسط) ودفع الجزية. وكان ذلك بداية لما سيلاقونه في ما بعد على يد تيمورلنك.

لتفكك المسار الآشوري عن الكلداني معطى النفور من نسطورية الأول وكاثوليكية الثاني. فإن من المفيد العودة إلى مرحلتين أساسيتين: الأولى علاقة الدولة العثمانية مع المسيحيين، والثانية الخروج الآشوري على الدولة العثمانية وتورطهم في كيان جديد: العراق.

المسيحيون يرفضون المساواة

لا يمكن التسليم بحكايات النشأة المدنية العسكرية المركبة التي رافقت الانتدابين البريطاني والفرنسي حول مسألة العثمانية وعلاقتها بالمسيحيين. لقد تم تحنيط التاريخ العثماني عند جواسيس السلطان عبدالحميد، وسرديات مختلفة أو مختزلة تجعل من العثماني التركي العدو الأكثر انحطاطاً في ماضي هذه «المكونات الوطنية».

بعد مخاضات عسيرة بلغت ذروتها في عهد السلطان محمود الثاني، حدث تحول جذري سيكون بمثابة الانعطافة الأكثر حدة في مسار الدولة العثمانية منذ نقلها مؤسسة الخلافة إلى اسطنبول. هذا التحول توّجه السلطان عبدالمجيد، وهو ابن محمود الثاني.

وحمل الأخير لقباً شعبياً هو «كاوور باديشاه» أي الباديشاه الكافر، ليس فقط لفرضه على الموظفين المدنيين لبس الجاكيت والبنطلون والطربوش وحصره ارتداء الجبة والعمامة برجال الدين فقط، بل لتماديه في التحديث لدرجة أن عبدالمجيد نفسه خلال ولايته للعهد كان يرافق بنفسه أخته «عطيت» وهي مرتدية الملابس الرجالية وتجمع شعرها تحت الطربوش في الثكنات العسكرية. وأقدم كذلك على جريرة فنية شنيعة عندما أمر - أي محمود الثاني - بتعليق صوره في المؤسسات الرسمية.

صدر مرسوم التنظيمات (كلخانة خط همايوني) عام ١٨٣٩ في عهد السلطان مجيد وهو ابن الـ١٦ عاماً. كان هذا الإجراء الثوري ضربة أخيرة للعسكريين المسيطرين على الدولة بعد حل الانكشارية، وتأسيساً للبيروقراطية العثمانية التي ستواجه مشكلات لا تقل عن الفترة التي سبقتها. في ١٨٥٦ صدر المرسوم الهمايوني الذي وضع العثمانية على طريق التحديث الحاد.

جرى إلغاء الجزية في الإصلاح الأخير، لكن أكثر من استاء من هذا الإصلاح كان مسيحيو ميزوبوتاميا وكردستان وأرمينيا، وبخاصة لجهة تقييد سلطة رجال الدين على الرعية من الناحية المالية على رغم الإبقاء على المحاكم الكنسية.

حرم قانون الإصلاحات على البطاركة وجميع [illegible] الجزية. وحين بدأ رفض هذا الإصلاح [illegible] بحدوث عصيانات مسيحية في الدولة. فقد أضيف بند إلى هذه الفقرة يقول: «للمسيحيين الذين لا يرغبون في أداء الخدمة العسكرية دفع البدل النقدي» وقد استقر معظم المسيحيين على دفع البدل، وهي كانت في وقتها بمثابة جزية لكن باسم آخر وعلى ١٠ السناط لم تشفع البنود الأخرى في المساواة القانونية بين المسلمين وأهل الكتاب وتمثيلهم في مجالس الولايات في اعتبار الرعية المسيحية ذلك نصراً لها.

بعض المجموعات المسيحية وجدت طرقاً للتحايل على كل من الجزية سابقاً ودفع البدل بعد الإصلاحات وعدم إرسال أبنائها إلى الجيش. كانت هذه المجموعة تشكل الآشوريين من النساطرة في هكاري الواقعة اليوم على الحدود بين تركيا وإيران وإقليم كردستان العراق.

خضعت السياسة العثمانية مع المسيحيين للمتغيرات في علاقاتها الدولية، وعلى هذا الأساس منح السلطان محمد الفاتح امتيازات واسعة للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية تحسباً لقلق عظيم كان يساوره في تحول الأرثوذكس إلى الكاثوليكية وبالتالي النفوذ الأوروبي.

في مراحل تالية عندما كان العدو الأكبر روسيا القيصرية كانت المعادلة عكسية. هذه الوقائع الموثقة تجعلنا حذرين في الاكتفاء بقراءة أحادية لمصطلح «مسيحيي الدولة العثمانية».

الانزياح الديموغرافي

كان من العسير على حالات الدولة العثمانية [illegible] في تقليل وضبط الغارات العشائرية المتبادلة بين الأكراد والمسيحيين أوقات السلم الدولي، كما في حالة الأمير محمد الراوندوزي الذي دمر سهل نينوى وطورعابدين وسنجار في ١٨٢٨ وما كان ليتوقف لولا تدخل الباب العالي. لكن لن تمر فترة حتى يرتدي الأمر طابعاً سياسياً أعمق مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

كانت جبال هكاري تعج بالقبائل الآشورية المعتنقة للمسيحية النسطورية، في حياة معتمدة على الرعي أساساً ثم الزراعة، بتداخل التقسيم القبلي مع الديني، والبطريرك هو في الوقت نفسه بمثابة قاضي العشائر المتنافسة كالتياري والتخوما وجيلو وباز.

يروي القس إدغار ويغرام وشقيقه تفاصيل معيشية دقيقة عن حياة الآشوريين وكاريزما البطريرك مار شمعون، لدرجة أن بعض العشائر الكردية المجاورة كانت تقبل التحاكم لديه.

لا يمكن تحميل قرار البطريرك مار شمعون التاسع عشر دخول الحرب ضد العثمانيين السبب الذي أدى إلى «سفر الخروج» النهائي من معقلهم في هكاري أساساً ما كان بالإمكان الحياد. انضم مار شمعون إلى الحرب رسمياً منتصف ١٩١٥ إلى جانب روسيا القيصرية، وخاضت قواته غارات ناجحة على القوات العثمانية المتمركزة بين هكاري ووان [illegible] من الحرب عام ١٩١٧، [illegible] على البطريرك ورعاياه الذين لم يصمدوا أمام هجمات العشائر الكردية المدعومة بقوات عثمانية. فكان قرار الانسحاب عسكرياً ومدنياً من قوشانس (مقر الكنيسة النسطورية) في هكاري إلى ضفاف بحيرة أورمية في إيران عام ١٩١٨، وهناك تسلم الإنكليز الملف الآشوري من دون وجود خطة بعيدة المدى لكيفية توظيف هذه القوة العشائرية غير المنظمة. لم يطل المقام في أورمية حتى دفعتهم هجمات التركمان والأكراد إلى النزوح الجماعي جنوباً باتجاه همدان حيث قتل ثلثا العدد. وتتباين المصادر التاريخية في ذكر العدد الكلي لهذا الانزياح الديموغرافي بين ٢٠٠ إلى ٥٠ ألفاً. ثم نقل الناجين إلى معسكر أنشأه البريطانيون في بلدة بعقوبة العراقية، في مكان قريب من موقع معسكر أشرف الذي يقيم فيه اليوم عناصر «مجاهدين خلق» الإيرانية.

تمكن بطرس آغا الباز وهو رئيس عشيرة آشورية صغيرة من قيادة المشروع القومي-الديني للآشوريين الناجين. ساد فراغ كارثي في قيادة هذه المجموعات الجبلية بعد تعرض البطريرك مار بنيامين شمعون للاغتيال عام ١٩١٨ على يد أبرز الزعماء الأكراد في ذلك الوقت، اسماعيل آغا سمكو. كان معسكر اللاجئين في بعقوبة يضم آلاف الآشوريين (بين ٢٠ إلى ٤٠ ألفاً). وتم نقلهم إلى معسكر مندان في الموصل وتشكيل فوجين من قوات «الليفي» تحت إمرة الجيش البريطاني. كان هؤلاء طيلة قرون القوة المسيحية القبلية المقاتلة في تلك الأصقاع الممتدة حالياً بين العراق وتركيا وإيران، على عكس أقرانهم السريان أو الأرمن الذين كان تشكيلهم العسكري أقرب إلى فكرة الطليعة المقاتلة.

كان بطرس هذا أكثر وضوحاً من سلفه في السعي إلى استقلال آشوري بكيان دولة تحت الحماية البريطانية. أزاح تأثير شقيقة مار شمعون، سرما خانوم، على اللاجئين على رغم أنه كاثوليكي. من النادر أن حظيت الحركات المسيحية في تلك البقاع بتجاوز المذهبية في القيادة. وبحركة تذكر بالقادة العسكريين الكبار، يقود بطرس آلاف المقاتلين بعد سنتين ويخترق المناطق الجبلية المملوءة بالعشائر الكردية، وينجح في تدمير بلدة مارزان، معقل آل مارزاني، ويفتح ممرين إلى هكاري وأورمية لإعادة اللاجئين إلى هناك. كان بينه وبين «إقليم آشور» خطأ بسيط كلفه غالياً: لم تكن سرمة خانوم على توافق مع بطرس آغا، واشتكت للإنكليز بأن هذا الكاثوليكي يتواصل مع الفرنسيين، وأنه أداة بيد الشيوعية. أما الإجراء الذي أجبر مقاتليه على ترك مواقعهم والعودة إلى مخيم مندان في الموصل هو رفض الإنكليز الاستجابة لطلبه بإرسال العائلات لنقلهم إلى موطنهم التاريخي بذريعة أن طقس الشتاء لا يسمح بذلك.

التوظيف البريطاني

أخفق بطرس ونُفي ثم اغتيل في باريس، وبنفيه بدأت المرحلة الأسوأ: التوظيف البريطاني للمسألة الآشورية.

أعلن ونستون تشرشل حال تسلمه وزارة المستعمرات عام ١٩٢١ سياسته بمقولته الشهيرة: «كل ما يحدث في الشرق الأوسط هو ثانوي بالنسبة إلى تخفيض النفقات... وإن لم يكن حكم العراق بأسعار أرخص، فإن بريطانيا ستنسحب منه مع الاحتفاظ بخط الساحل فحسب».

هذه السياسة أدت إلى إعادة البريطانيين لتوظيف [illegible] والهنود، حيث كان يكلف الجندي الآشوري ربع ما يكلفها البريطاني وأقل من نصف تكلفة جنود المستعمرات، وكان هؤلاء القوة الضاربة في الهجوم على ثورة الشيخ الكردي محمود الحفيد في السليمانية، وثورة العشرين في الجنوب.

طرأ تغير جذري على الرؤية البريطانية في العراق منذ مؤتمر القاهرة ١٩٢١. الاستقرار على فكرة تنصيب فيصل ملكاً عبر مسرحية مس غيرترود بيل، ونهاية فكرة الوطن الآشوري والإقليم الكردي، وبدء تسليم البلاد إلى نخبة قومية ساهمت بريطانيا في إظهارها والنحت فيها. كان هناك خوف من انضمام الأكراد إلى تركيا عبر ولاية الموصل، وخوف من إثارة توطين الآشوريين في كيان إداري ضمن العراق مشاعر مسلمي العراق كرداً وعرباً.

بقيت هناك قناعة لدى الآشوريين بأن بريطانيا لن تمنح العراق استقلالها وتغادر. على هذه القناعة جاء التبجح الآشوري في إطلاق النار ضمن حادثتي الموصل ١٩٢٣ وكركوك ١٩٢٤، وفي الأخيرة قتل ما لا يقل عن ٥٠ تركمانياً في سوق المدينة. وبات السكان ينعتونهم بـ «الكفار» و«العملاء». وجاء الضم النهائي لولاية الموصل إلى العراق بمثابة صدمة إضافية، لتعقبه اتفاقية استقلال العراق عام ١٩٣٢ ضربة لم يصح منها الآشوريون حتى مذبحة سميل بعد سنة بقيادة جعفر العسكري وبكر صدقي. هناك كان ضابط عراقي يجيب زائراً أجنبياً في الموصل عن سبب قتله أحد الآشوريين في الشارع: «قتلته لأنه عميل للإنكليز». وكان إلى جانبه ضابطان انكليزيان يشرفان على عمل القوات العراقية. وبها انتهت المحاولة الثالثة لانتزاع كيان آشوري خلال ٢٩ عاماً، وحدث النزوح الأخير إلى الإدارة الفرنسية في سورية.

بقي تاريخ القومية الآشورية هو ذاته تاريخ الكنيسة النسطورية حتى عام ١٩٤٦ عندما أقدم البطريرك مار ايشاي على إنهاء دور الكنيسة في المسألة الآشورية، طالباً منهم «أن يكونوا أوفياء لأوطانهم، خاضعين لقوانينها». وإيشاي اغتيل لاحقاً على يد آشوري في شيكاغو.

على رغم قلة عددهم تاريخياً، إلا أن كل تحرك لطائفة النساطرة كان يثير الفزع لدى الطوائف المسيحية الأخرى، ذلك أن النكبات التي يقعون فيها ترتد بأثرها على كل الطوائف المسيحية. لذا، ليس غريباً أن يكون أشد المعترضين على مشروع إقليم سهل نينوى (المسيحي - الأقلياتي) من المسيحيين أنفسهم.

تضاف إليها أيضاً حمولة التاريخ المتخيلة التي تجعل من اعتمادهم على كردستان نوعاً من الإهانة لملوك آشور العظماء.

الانزياح المسيحي هذه الأيام إلى الشمال يجعلهم قريبين من الموطن التاريخي للنساطرة وفق الفهم الآشوري (هكاري). لكن ما قد يصيب الكثيرين منهم بالاختلال العقلي فعلاً هو أن يصل بهم النزوح إلى هكاري نفسها، سيكون الأتراك والأكراد في انتظارهم وهم يهيئون لهم الخيم على أنقاض قراهم التي دمرت وسلبت خلال سفر الخروج الأول عام ١٩١٧.

وتبدو في الأمر مفارقة أخرى: لو أن سركيس آغاجان أعلن عن هذا الإقليم الأشبه بـ «غيتو آمن» في الحمدانية وتلكيف تحت الحماية الكردية، لوجدت الدولة الإسلامية أدبيات غنية في تبرير تسييرها الجيوش للقضاء على هذه «الدويلة الصليبية» في أرض الإسلام.

ربما ما ينقص مسيحيي العراق اليوم هو بالضبط تلك «المغامرة الآشورية»... على أن تكون في سهل نينوى لا في سهول باريس.

كنيسة في منطقة عين كاوا في أربيل (أ ف ب)



هاربون الى أربيل من قرية قراقوش (أ ف ب)

إخفاق مشروع "ساندمان - بروس" وتأسيس المركزية في العراق

■ تقاطع تطور السياق السياسي البريطاني في العراق مع النكبة الآشورية عام ١٩٣٣، ومن بينها تلك التجربة الغامضة التي حملت اسم مشروع «ساندمان - بروس» والتي ظهرت بتأثير نفوذ الهند البريطانية على العراق حتى تاريخ انعقاد مؤتمر القاهرة البريطاني عام ١٩٢١.

صاغ الموظف الكبير في حكومة الهند البريطانية، روبرت ساندمان، مشروعاً عام ١٨٦٩ يقضي بضم مناطق قبائل البلوش إلى الإدارة البريطانية من دون الحاجة إلى نقل الجيش البريطاني، وذلك عبر تمويل النظام القبلي في بلوشستان وشراء الحاكم الأكبر ضمن كل قبيلة. ونجحت الخطة أيما نجاح، لدرجة أن سلفه المدعو «بروس» أخذته الحماسة لتطويرها ونقلها إلى قبائل البشتون، وفشل فشلاً ذريعاً بسبب اختلاف النظام القبلي البشتوني المعتمد على نوع صارم من القيادة الجماعية (جيركا). كانت السياسة البريطانية في الشرق الأوسط برمته تعتمد في بادئ الأمر على هذا النظام، وليس فقط في العراق على ما يذهب المؤرخ العراقي جرجيس فتح الله. وأهم الأمثلة الشريف حسين وابناه فيصل وعبدالله اعتماداً على الاحترام الذي كانوا يحظون به دينياً وسياسياً.

ما حكم على هذه التجربة (النظام القبلي) بالفشل المبكر عراقياً ثورتان: محمود حفيد الكردي في الشمال، وثورة العشرين في الجنوب واستمرار التمردات ذات الطابع القومي العشائري، إضافة إلى نواري قوة أفخاذ العشيرة الواحدة. كما في عشائر فتلة جنوب العراق التي حملت السلاح على بعضها بعضاً بسبب استمالة البريطانيين أحد زعمائها دون الآخرين. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الزيبارية في كردستان. كان الهدف هو تجنيد أبناء العشائر لأغراض حفظ الأمن لتفادي نشر الجنود البريطانيين في كل المقاع. خلال هذه الفترة سيكتشف الملك فيصل أنه لا يوجد «شعب» في العراق.

كان الاعتماد البريطاني على الآشوريين يأتي ضمن نموذج «ساندمان - بروس»، ووجدوا أنسب شخص للقيام بالدور، البطريرك مار شمعون (الشهيد). وبعد مقتل الأخير اعتلى بطرس آغا زعامة عسكرية من دون أن يمتلك الكاريزما الدينية المطلوبة على غرار سلفه.

ولكن تبين أن تقليل التكاليف بهذه الطريقة خلق مشكلات أكبر، فمن جهة يتطلع الآشوريون إلى العودة لموطنهم في إيران وتركيا أو إقامة كيان تحت الإدارة البريطانية في العراق. كما أن الشيخ محمود الحفيد فقد ثقته كلياً بالبريطانيين على خلفية انسحابهم المفاجئ وغير المنسق من كركوك، الأمر الذي مكّن قوات العثمانيين من أسره سنة ١٩١٨، وبات كل ما يطرحه الحفيد غير متوافق مع السياسة البريطانية خصوصاً مسألة إعلان مملكة كردستان وتطلعه لضم كركوك حيث عين تتركز على النفط.

بعد إخفاقهم في العودة إلى هكاري في مغامرة بطرس آغا، سعى الآشوريون إلى انتزاع وعد أشبه بوعد بلفور، وبات تحريض الصحف القومية خلال العشرينات ضدهم قائماً على مزاعم بوجود «وعد بلفور آشوري» لتقسيم العراق.

بعد تبين عدم جدوى مشروع «ساندمان - بروس» بسبب الحمولة القومية والطائفية الحادة في العراق والتعقيد القبلي، تم الانتقال منذ مؤتمر القاهرة إلى الاعتماد على بناء السلطة في المدن، ومعاقبة من يتمرد عليها في الأرياف. استدعى ذلك تشكيل جيش مركزي عراقي قادر على العقاب، فيما اعتمد البريطانيون بشكل شبه كلي على القوة الجوية.

ويعود الفضل للآشوريين في إثبات الجيش العراقي الهزيل كفاءته في مذبحة سميل، وتم تجريبه بنجاح فيهم خلال مذبحة سميل على يد ضباط كانوا يخدمون بإخلاص في الجيش العثماني قبل سنوات قليلة. ومنذ ذلك الحين لقي قانون التجنيد الإجباري استجابة شعبية في أوساط العرب لما حققته المجزرة من تلبية لرغبات سكانية واسعة في «المدن القومية» الناشئة، كما في الموصل وبغداد.

الحياة
الخميس ٤ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٤ الموافق ٩ ذو القعدة ١٤٣٥ هـ العدد 18780
ALHAYAT THURSDAY 4 SEPTEMBER 2014 ISSUE NO 18780

حكايات عن "الخلافة" في بلاد الإيزيديين... وعن مجازر وقبور جماعية (٣-٢)

لم يعد هناك مَن يحميهم من "داعش": الإيزيديون برسم الهجرة أو الحماية الدولية

أربيل - ساماك نوح

■ في الطريق إلى منطقة رميلان السورية المحاذية للعراق، وقفت ليلى ذات الـ١٤ ربيعاً على ربوة وقد غطى الغبار معظم ملامح وجهها، إلى حد كان من الصعب التحقق من كونها فتاة بشعرها القصير.

بدت شاردة وهي تنظر إلى أرتال القادمين من الجبل وهم يثيرون الغبار حولهم.

قال مقاتل كان يساعد الناجين على ركوب عربة نقل صغيرة: «إنها هنا منذ ساعات وترفض المغادرة قبل أن تصل والدها، كما نقلها فتى لكل العائلة التي جاءت معها قالت إن والدها فقد شقيقتيها في الطريق لكي تنجو من عيون مقاتلي دولة الخلافة».

قالت الفتاة بصوت مرتجف: «لقد فقدته في الجبل، ذهب لجلب الماء ولم يعد، لا أعرف ما حل به، سرت مع عوائل كانت ترافقنا في الأيام الثلاثة الأخيرة وهذه هي النقطة الأخيرة، لا أريد أن أغادر إلى سورية من دونه، هو رجل كبير، أخشى ألا أراه مجدداً».

أم ليلى وأشقاؤها كانوا سبقوها إلى الجبل يوم غادروا المدينة، وهي لحقت بهم مع والدها. الأمر ذاته حصل لآلاف العوائل التي تشتت أفرادها، وانقطعت كل سبل التواصل بينهم.

مئات آخرون بلا عائلات

ليلى ليست الوحيدة التي تنتظر وهي أسيرة الخوف، لقاء قد لا تحظى به أبداً، فهناك مئات آخرون يعيشون المصير ذاته. وفق الناشط المدني جمال قادو الذي أكد وجود ثلاثين طفلاً في منطقة إيشكي شمال مدينة دهوك فقدوا أهاليهم ويتلقون الآن الرعاية من متطوع كردي، وهناك مئات آخرون يقيمون في مخيمات زاخو ودهوك وشاريا وخانكي وديربون تحت رعاية منظمات إنسانية وعوائل إيزيدية.

من بين هؤلاء فوزية حازم، وهي في الحادية عشرة من عمرها وصلت وحدها إلى دهوك بعد أن فقدت أثر ١١ فرداً من عائلتها، وفق مكتب الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان في المحافظة.

في نهاية الطريق المؤمن من قبل المقاتلين الكرد، على الحدود السورية، بدا العجوز السبعيني جميل متماسكاً وسعيداً بنجاته «لقد أعدوا لقيامتنا، لكننا نجونا، مشينا حوالى أربعة أيام، كنت أصعد الجبل أحياناً على أطرافي الأربعة كالأطفال، وأحياناً كان يحملني ابني على ظهره، قلت له اتركني أموت هنا، لكنه لم يفعل».

[illegible]

يوماً حصلت خلالها على وجبة عدس واحدة ووجبة برغل، وظلت بقية الأيام تطحن الحنطة وتخلطها مع الماء الملوث لتطعمه للأطفال، بينما حصل الكبار على قطع صغيرة من الخبز كانت كافية لإبقائهم أحياء.

لكن الحصول على الطعام والماء لبقائهم أحياء لم يكن همهم الوحيد، فالعائلة فقدت ثلاثة من أفرادها، هم: شاب في الثلاثينات لا أحد يعرف مصيره، وشقيقة أخذها مقاتلو الدولة الإسلامية مع زوجها.

تقول زوجة جميل، وهي تفترش التراب وإلى جانبها ابنتاها اللتان كانتا مصابتين بالتهابات في وجهيهما وعيونهما: «دعواتنا لم تتوقف كدموعنا منذ ذلك اليوم، نعيش الموت كل لحظة، هواتفهم مقفلة، ولا أحد يعرف عنهم شيئاً، إن كانوا أحياء أم لا، هناك مئات المفقودين نتمنى من الله أن يكونوا موتى، لا أن يكونوا أسرى عند داعش».

لكن حال عائلة جميل بدت أفضل بكثير مقارنة بحال فارس سليمان الذي فقد ٣٠ فرداً من عائلته: «لم يعد هناك أحد... بناتي وأولادي وأشقائي اختطفوا جميعاً، لم يكن مقاتلو داعش وحدهم، بل كان معهم رجال عشائر عربية نعرفهم طوقوا بيوتنا وقتلوا كل من قاوم وأخذوا الفتيات والشباب».

فيصل حسن، وهو نازح آخر، وصل إلى منطقة رميلان السورية التي عبر إليها الهاربون من الجبل، بدا أكثر تفاؤلاً: «هناك إله في السماء، لا أصدق أنني نجوت مع أولادي من الموت عطشاً وجوعاً، وقبله من الذبح، استجاب الله لدعائنا، نعم فقدت طفلاً رضيعاً لكن هذه الأمة نجت مجدداً من الفناء».

إرادة الحياة لدى فيصل لم تكن غائبة عن آخرين خرجوا أحياء من الجبل.

كريم الذي ظل يدفع عربة نقل الحصى التي فرش عليها بطانية ووضع عليها شقيقه المعوق خدر، قال: «لم يكن ممكناً أن أذهب إلى الجبل وأتركه وحده في المنزل، كان علي أن أنقذه. ادعيت أنني مسلم وأنني ذاهب إلى بيت عمي لطلب المساعدة لشقيقي المريض، لكنني توجهت إلى الجبل... كنت محظوظاً فالذين صادفوني في الطريق صدقوني أو كانوا رحماء، لكن آخرين فشلوا في الوصول».

الأخ الأكبر ظل طوال خمسة أيام يدفع شقيقه في عربته في الطرق الجبلية الوعرة ويؤمن له الطعام والماء لإبقائه حياً، كان ذلك يتطلب أحياناً أربع ساعات من المشي نزولاً إلى الوادي، وصعوداً من جديد.

كريم الذي أصابت التقرحات وجهه، حكى عن أصعب لحظات رحلته: «في مدخل أحد [illegible] تخشى أن تعرقل فرصة إنقاذ عائلتها... خشيت أن يفعل شقيقي الأمر ذاته».

تابع كريم وهم يمسح دموعاً التمعت في عينيه: «طلب مني مرات عدة أن أتركه وأهرب... كان علي أن أبحث عن غذاء وماء، كنت حائراً كيف أمنحه الثقة بأنني سأعود وعليه أن ينتظرني... حلفت له مراراً أننا سنموت معاً أو ننجو معاً».

خاتون التي عجزت عن السير مع عائلتها، قررت في مساء اليوم الثالث إنهاء حياتها، يقول كريم: «ابنها ظل يومها يحملها ساعات لكنها لم تكن راغبة في ذلك، ورفضت تناول حصتها من الخبز، كان واضحاً أنها قررت الانتحار... ظل ابنها يبكي طوال تلك الليلة ويطلب منها السماح لأنه أخرجها من دون رغبتها من المنزل».

في صباح اليوم التالي دفنت العجوز التي تهشم جسدها قرب شجرة في المنطقة الوحيدة التي كان يمكن حفرها في الجبل الصخري «استخدمنا رؤوس الأحجار الحادة لحفر نصف متر، ثم ألقينا عليها الحجارة».

الرحلة التي لم تكملها خاتون، أكملتها ميان التي قضت عشرة أيام في جبل سنجار مع ابنيها اللذين حملاها على ظهريهما وأحياناً على نقالة، من قرية تل عزير شمال سنجار إلى سورية، في مسيرة نزوح لم تنقطع خلالها عينا ميان عن البكاء.

العودة إلى الوطن

طارق الياس الذي كان يغسل وجه ابنته من الغبار الذي علق به على حافة جسر فيشخابور الرابط بين سورية والعراق حين كان عائداً مع آلاف النازحين الذين اختفت ملامح الجسر تحت أقدامهم، قال وهو يحاول تهدئة ابنته التي كانت تبكي بسبب الآم الالتهابات التي خلفتها الشمس في وجهها: «تركنا كل شيء لننجو بأرواحنا... بيوتنا، مواشينا وسياراتنا، وحتى الذهب الذي كان في خزانات بيوتنا... لا نعرف ما هو مصيرنا».

وأضاف الياس وهو يرفع صوته ويهز مكلفاً بيديه أسفاً، بينما كانت زوجته تنادنه للركوب في شاحنة غصت بالنازحين: «انتظرنا أسبوعاً كاملاً وصول مقاتلي البيشمركة، ثم عرفنا أنهم يبعدون عنا وأننا تركنا وحدنا، فتح مقاتلو الـPKK طريقاً من الجبل إلى مدينة سنوني ثم منطقة رميلان لإنقاذنا، لم يكن آمناً تماماً لكنه كان المفر الوحيد، مشينا تسع ساعات قبل أن نكون بأمان».

الياس كان قلقاً على ابنه الذي بقي في الجبل: «فضل أن يبقى هناك ويحارب، تركنا نكمل الطريق وحدنا، أردت منعه لكنه لم يستمع [illegible]».

٤٠٠ ألف نازح

في الـ١٢ من آب (أغسطس)، قدر مدير معبر فيشخابور شوكت بربهاري عدد النازحين من جبل سنجار الذين وصلوا إلى المعبر الذي يربط سورية بالعراق، بحوالى ٧٥ ألف نازح فيما سجلت منظمة الهجرة العالمية في ١١ آب، وصول ٨٠ ألف إيزيدي نازح من جبل سنجار إلى دهوك، وهم من قدموا عبر طرق عدة، متوقعة ارتفاع الأرقام إلى الضعف مع استمرار تدفق النازحين، وفق نايف محمد المسؤول الميداني في المنظمة.

في ٢٠ آب كشفت إدارة محافظة دهوك الكردية عن استقبالها ٧٠٠ ألف نازح، غالبيتهم من الإيزيديين والمسيحيين الذين نزحوا من مناطق سهل نينوى (حوالى ٢٥٠ ألفاً) وسنجار وزمار (٤٠٠ ألف) التي وقعت تحت سيطرة الدولة الإسلامية، فضلاً عن وجود حوالى ٣٠ ألف نازح من سورية ومن الموصل يقيمون في دهوك.

يشكل ذلك الرقم لمحافظة لا يتجاوز عدد سكانها المليون و٢٠٠ ألف نسمة، ضغطاً هائلاً على البنية التحتية التي يقول محافظها إنها «مهددة بالانهيار» مطالباً الحكومة الاتحادية بدعمها سريعاً لإغاثة عشرات الآلاف ممن تقدم جهات أهلية ومنظمات خيرية الطعام لهم حالياً.

ووفق مؤسسات إيزيدية، فإن ٢٥٠ ألف إيزيدي تركوا مناطقهم بين ٥ و١٥ آب، وتوزع هؤلاء في ٧٠٠ مدرسة إلى جانب مئات الأبنية الحكومية والأهلية ومخيمات موقتة وهياكل بنايات غير مكتملة وحدائق عامة في مدينتي دهوك وزاخو والبلدات القريبة منهما، كما وصل عشرات الآلاف إلى محافظتي أربيل والسليمانية.


نازحون إيزيديون في أحد مراكز الإيواء في أربيل (رويترز)

ويصف ناشطون في منظمات محلية أوضاع اللاجئين الحالية بـ «الكارثية» مرجحين تعقيدها أكثر مع تراجع الأعمال الخيرية المحدودة التي يقدمها الأهالي والتي تؤمن وجبة غذاء يومية لهم. «سيسوء الأمر أكثر مع حلول فصل الخريف وبدء انتشار الأمراض بين النازحين الذين يعانون من أوضاع صحية سيئة أصلاً بعد أسبوعين من الجوع والعطش» يقول الناشط سربست محمد.

المطالبة بالهجرة

أمام واقعهم الحالي في مدن كردستان، وصعوبة تأمين مناطقهم التي ستظل الخط الأول لكل صراع بين الدولة الإسلامية وكردستان وبين العرب والكرد في المستقبل، يطالب معظم الإيزيديين بالهجرة إلى خارج البلاد، ويرفضون فكرة العودة إلى بلداتهم حتى لو تم إبعاد مقاتلي الدولة الإسلامية عنها، وبعضهم يطالب بإخضاع تلك [illegible] القوات الكردية على حمايتها.

معد التحقيق أجرى استطلاعاً في مخيمين انتشر فيهما النازحون الإيزيديون في زاخو ودهوك، شارك فيه ١٢٠ شخصاً، تضمن ثلاثة خيارات: الهجرة إلى أوروبا، حماية مناطقهم بقوات دولية، طرد «داعش» وإخضاعه مناطقهم لحماية البيشمركة.

وفق النتائج، فإن ٥٨ في المئة من الإيزيديين الذين استطلعت آراؤهم فضلوا الهجرة، فيما فضل ٣٧ في المئة منهم إخضاع مناطقهم للحماية الدولية.

يقول كاروان جلال، وهو ناشط مدني، إن تلك النتائج تعكس مزاج المواطن الإيزيدي الذي «فقد الثقة» بقدرة البيشمركة على الدفاع عن مناطقه حتى لو استردت «هي ستظل مهددة بغزوات مقاتلي دولة الخلافة». يضيف جلال: «فيما كسب الكرد تأييداً دولياً واسعاً بعد مذابح سنجار، فإن الإيزيديين دفعوا ثمناً غالياً».

جلال كلو، مواطن إيزيدي في الأربعينات من عمره، يفترش مع مئات آخرين جانب طريق في منطقة قريبة من معبر الخابور المؤدي إلى تركيا، يرفض كلياً فكرة العودة ويصر على الخروج بعائلته إلى تركيا ومنها نحو ألمانيا.

يقول كلو: «لدينا ضحايا لن ننساهم أبداً... خسرنا أموالنا ومواشينا وممتلكاتنا التي نهبت، لم يبق لنا شيء هناك، حتى لو طردوا «داعش» فهل سيتركوننا نعيش بسلام وهم على حدود مدننا؟ وكيف نعوض ما خسرناه ونبدأ مجدداً حياتنا في حقل ألغام. الكلام سهل لكن الواقع غير ذلك».

القيادة الدينية والسياسية للإيزيديين، هي الأخرى ليست بعيدة من تلك المطالب. يقول حسين قاسم حسون، وهو شخصية إيزيدية التقت ضمن وفد إيزيدي كبير رئيس الوزراء في إقليم كردستان نيجيرفان بارزاني: «الإيزيديون يريدون من حكومة كردستان فتح باب لطلب اللجوء الجماعي إلى أوروبا أو أميركا، كما يريدون حماية دولية لمناطقهم... قلنا إننا لن نقبل أن نعيش في إقليم لا تستطيع حكومته حمايتنا وحفظ شرف بناتنا مهما كان السبب».

يضيف حسون: «نريد فتح الباب لمن يريد الهجرة وتسهيل ذلك، ونطالب بحماية دولية لمن يقررون البقاء في سنجار».

لا ثقة بالقوات الكردية

بعد الإبادة التي تعرض لها الإيزيديون في سنجار عقب ما وصفه مسؤولون كرد بـ «الانسحاب التكتيكي من المدينة» لم تحظ تعهدات القادة الكرد باستعادة المناطق الإيزيدية وحفظ الأمن فيها، بثقة معظم الإيزيديين، ولم تلق فكرة إنشاء قوة خاصة بهم لإعادة السيطرة على سنجار وحمايتها [illegible] الضخمة للدولة الإسلامية».

على رغم كونها ليست حلاً، فإن القوة التي وافق الإقليم على إنشائها وحصرها بأهالي سنجار من الإيزيديين والمسلمين، استقطبت خلال أيام مئات الشبان، وحظيت الفكرة بدعم من المجلس الروحاني الإيزيدي الذي أكد الناطق باسمه كريم سليمان، فتح ثلاثة مراكز للتطوع في مناطق سيميل وشيخان ودهوك، متوقعاً تسجيل ألفي متطوع كمرحلة أولى.

لكن هناك قوة ثانية قام بتشكيلها حزب العمال الكردستاني وهي تتلقى التدريبات لدخول سنجار. وهناك قوة ثالثة تمثل المقاتلين الإيزيديين المنتشرين في جبل سنجار وهؤلاء انتقدوا بشدة انسحاب البيشمركة من سنجار، واعتبروا ما حصل خيانة من جانب القادة العسكريين لا يمكن أن تغتفر.

«هذا التشتت في القوى، يخلق شعوراً لدى الإيزيديين بأنهم قد يقعون مجدداً ضحية صراعات ومصالح حزبية يستفيد منها مقاتلو داعش» يقول سالار كريم.

شرخ مجتمعي

يرى الأستاذ الجامعي خلات سلو، أن مطالب طائفته بالهجرة مبررة «وضعنا يختلف عن بقية المكونات، فنحن مهددون بالقتل ولا خيار لدينا غير الهجرة... المسيحيون سمح لهم بالرحيل أو البقاء مع دفع الجزية ورحبت دول أوروبية بهم، والتركمان الشيعة كان أمامهم أكثر من خيار وحصلت إعادة توطينهم في الجنوب، لكن ما الذي أمامنا نحن؟».

برهان عبدي، وهو رجل دين إيزيدي،



وصف ما جرى لطائفته بأنه «إبادة بدافع التطهير العرقي، حصلت حين تخلى مقاتلو البيشمركة عن واجبهم، وخانت عشائر عربية عهود العيش المشترك». مبيناً أن ما حصل أحدث شرخاً مجتمعياً لن يندمل سريعاً وسيظل لصيقة بلاحق الإيزيديين.

واعتبرت الشخصية الإيزيدية البارزة عروبة بابيزيد أن «الإبادة وقعت بمشاركة الجيران المسلمين... للأسف من كانوا مؤتمنين على حماية سنجار هربوا وسلموا المنطقة على طبق من ذهب إلى دولة الخلافة، فيما غدر العرب بنا حين رحبوا بمقاتلي دولة الخلافة وساعدوهم في الهجوم، واشتركوا معهم في نهب ممتلكاتنا».

عروبة أكدت أن وجود طائفتها في سنجار وهو الموطن الأول والأخير لهم أصبح مهدداً، مع عمليات الإبادة المستمرة هناك.

وفق أرقام وثقتها منظمات محلية ووزارات ومؤسسات عراقية، تعرض حوالى ٩٠٠ رجل وشاب وطفل إيزيدي إلى الإبادة، بين ٣ و١٨ آب، دفن حوالى ٥٠٠ منهم في مقابر جماعية، إلى جانب خطف أكثر من ألف امرأة أخذن سبايا.

دلال شمو، وهي مدرسة تاريخ، قالت: «لا يمكن مقارنة ما يحدث لنا بأي ويلات سبق أن عشناها، إن مصيبتنا مزدوجة، فنحن نذبح لأننا إيزيديون ولأننا كرد. عقولنا لا تستوعب كل هذه القسوة، فهم لم يتركوا لنا خيارات كما تركوها للمسيحيين أو الشيعة، ليس بأيدينا شيء نفعله، سنظل نبكي عمرنا كله على ما حل ببناتنا».

يقول موظف البلدية سليم كامل الذي فقد ابنته: «تعرض الإيزيديون لـ٧٢ مذبحة سابقاً، لكن هذه أشدها، لم يسبق أن سبيت نساؤنا، كانوا يقتلونهم مع الرجال، لكنهن اليوم يختطفن أمام مرأى العالم. كل ليلة أرى وجه ابنتي تناديني، أردد اسمها في كل حين، ليتنا لم نولد أبداً، ليتنا لم نعش لنشهد هذا اليوم».

هذا الخوف من الإبادة والشعور بنهاية التعايش المشترك، لا يشعر به الكردي المسلم ولا المسيحي، وهو يبدو مبرراً، فعدد من أمراء الدولة الإسلامية الذين تحدث إليهم معد التحقيق، أقر بقتل مئات الإيزيديين ممن رفضوا دخول الإسلام، وأخذ نسائهم سبايا «ما لم يعلن إسلامهن».

الأمراء في ولاية الموصل اعتبروا قتل الإيزيديين مباحاً شرعاً «هم كفرة يرفضون الدخول في الإسلام، وسنجار اليوم هي جزء من دولة الخلافة التي ليس فيها لغير المسلمين مكان إلا من دفع الجزية من أهل الكتاب».

الأمير أبو قدامة أكد أن «لا حدود لدولة الخلافة» وهو ما يضع كل الإيزيديين تحت الخطر الدائم للقتل والتهجير ما بقيت هذه [illegible]

إنهم اليوم مهددون أكثر من أي وقت مضى «وجودنا في موطننا الرئيسي في خطر لأول مرة منذ قرون، وإذا خسرنا سنجار فسيكون كل وجودنا مهدداً... كنا في السابق نقلق من الهجرة لكنها ربما اليوم تمثل خلاصاً لكثيرين».

قبل أن يتحقق أمل عشرات الآلاف من الإيزيديين بالهجرة أو حماية مناطقهم دولياً، وهما خياران صعبا التحقيق، سيضطر معظمهم مرغمين على العيش في مخيمات موقتة تفتقد الكثير من أسس الحياة، وسيكون عليهم لأشهر عدة، تجميع مئات العوائل المشتتة وكشف مصير مئات المفقودين والبحث عن حلول تبدو مستحيلة لاستعادة حوالى ألف امرأة مختطفة.

وبصرف النظر عما ستؤول إليه مسارات الأحداث، فإن آلاف المكلومين بفقدان أبنائهم وبناتهم في فتوحات دولة الخلافة في مدينة سنجار، ينتظرهم شتاء قد يكون الأخير لهم على هذه الأرض.

شتاء سيكون الأقسى في حياة المعلم نخيل صالح الذي فقد كل عائلته ما عدا طفلته الصغيرة نسرين. صالح الذي كان يحتضن ابنته وهو يفترش الأرض على بعد بضع مئات من الأمتار عن الحدود التركية حيث يأمل بأن يتمكن من العبور عبر أراضيها إلى ألمانيا، قال: «انتهى وجودنا هنا... لن أعود أبداً إلى أرض أخذت مني كل من أحب».

---

* أنجز هذا التحقيق بدعم من شبكة الصحافة الاستقصائية العراقية (نيريج)



أطفال أيزيديين بين نازحين (رويترز)

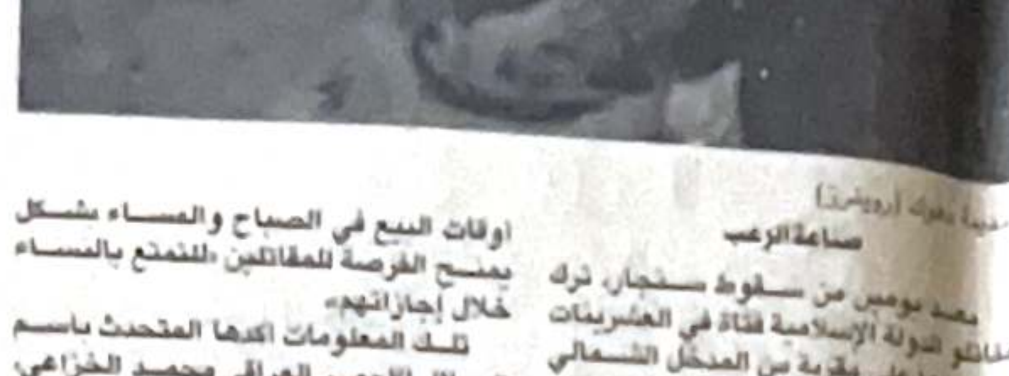
مسلح إيزيدي في إحدى قرى شمال العراق (أ ف ب)

الحياة
الثلاثاء ٢ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٤ الموافق ٧ ذو القعدة ١٤٣٥ هـ العدد ١٨٧٧٨
AL-HAYAT TUESDAY 2 SEPTEMBER 2014 ISSUE NO 18778

حكايات عن «الخلافة» في بلاد الايزيديين... ومن مجازر وقبور جماعية (١ من ٣)

سنجار: نساء انتحرن قبل أن يُسبين... و«البيشمركة» انسحبوا من دون انذار السكان

اربيل - ساما نوح



اطفال ايزيديون لجأوا الى مدينة دهوك (رويترز)

■ كانت الموطن الأول لإتباع الديانة الإيزيدية وملاذهم الاخير، لكنها اليوم ارض خاوية تتناثر على طرقاتها جثث القتلى وتتسلل بين دروبها المتعبة عربات الخلافة وهي تحمل مئات من ابنائها المحكومين بالإعدام سلفاً إلى مقابرهم الجماعية، فيما تظهر من بعيد مواكب النساء السبايا وهي تودع المدينة في طريقها إلى معاقل «الامراء المجاهدين».

قبل بزوغ فجر يوم الاحد الثالث من آب (اغسطس)، كان مشهد سيل السيارات المتجهة إلى الجبل الجاثم على حدود الصحراء يثير الرعب. وقف راعي الغنم وليد علو الذي تعود ان يخرج باغنامه إلى اطراف الجبل في ساعة مبكرة كل صباح، مشدوهاً وهو يرى «نهراً من الاضواء تخترق عتمة الليل».

كانت تلك اضواء السيارات التي تحمل عشرات الآلاف من المذعورين وهي تتسابق باتجاه الجبل الذي مثل نقطة الخلاص من موت اكيد.

مع خيوط الشمس الاولى وصلت إلى مداخل الجبل مجاميع العوائل المنهكة من المشي والتي لم تجد من ينقلها بالسيارات.

كانت العيون المتوجسة تنتقل سريعاً بين المدى المنظور للجبل الصخري الجاثم على باب الصحراء وبين الطريق الممتد إلى المدينة «المنكوبة»، وهي تدقق في كل قادم جديد خوفاً من ان يكون «جيش داعش الجرار» بعرباته السريعة التي تهاجم كالجراد الجائع مزارع القمح.

بعد ساعات تزاحمت على الدروب الجبلية الآف العوائل التي خارت قوى العجائز والاطفال فيها، فتجمعت قرب الاخاديد الجبلية التي تؤمن شيئاً من الظلال تخفف حر الشمس الحارقة، فيما كانت تسمع من بعيد اصوات الطلقات النارية.

عشرات الآلاف تناثروا في كل بقعة متاحة وهم ينتظرون ان يتبين المشهد، بين وصول قوات البيشمركة الكردية لإنقاذهم، او انقضاض مسلحي «داعش» عليهم. لكن الأخير بدا الاقرب مع تصاعد دوي الإطلاقات القادمة من ضواحي المدينة، فيما بدأت قصص القتل الجماعي والاعتداء على الفتيات تنتقل سريعاً عبر اجهزة الموبايل التي لم تتوقف عن نقل الأخبار الصادمة.

الجبل... الملاذ الوحيد

مع اختفاء اثر البيشمركة وانسحابهم كلياً باتجاه الأراضي السورية، عرف خيري حسو، وهو مقاتل ايزيدي في الاربعينات من عمره، ان طائفته تواجه مذبحة جديدة ستضاف إلى الـ ٧٢ مذبحة التي وثقها الايزيديون في موروثهم الثقافي واغانيهم الملحمية.

لحظتها قرر حسو الذي شهد الهجرة المليونية للسكان الكرد امام جيش رئيس النظام السابق صدام حسين عام ١٩٩١، إبعاد عائلته إلى عمق الجبل والاستعداد معهم لمعركة مع الموت. قال: «انهم يريدون إبادتنا، وهذا الجبل القاسي ملاذنا الاخير كما كان في كل المذابح السابقة».

القرار ذاته اتخذه الآف آخرون، فمشاهد التركمان الشيعة الهاربين من القتل في بلدة تلعفر المجاورة قبل نحو شهرين، كانت لا تزال حاضرة بقوة في عيون اهالي سنجار، من ايزيديين ومسلمين ومسيحيين وكرد وتركمان، وهو ما دفعهم من دون تفكير للنزوح بعيداً من بطش عدو لا يرحم، تاركين خلفهم كل شيء، بما فيه ذكريات التاريخ الطويل للتعايش المشترك.

ساعات الانهيار

طوال الاسبوع الذي سبق الهجوم على المنطقة لم تكن تحركات مقاتلي الدولة الإسلامية طبيعية، فالحشود تواصلت مع نهاية شهر رمضان الماضي، واستمرت خلال عيد الفطر، الكل في مجمعات جنوب سنجار كان يتوقع هجوماً واسعاً، بيد ان كل تنبيهات الاهالي ومناشدات تسليحهم لم تلق استجابة لدى قادة قوات البيشمركة.

ما حصل كان صادماً، بحسب داود قلو الذي شهد احداث الساعات الاخيرة قبل سقوط سنجار بيد مقاتلي الدولة الإسلامية «بعد الثانية من منتصف الليل اشتد القصف بالهاونات على مجمعات سيبا شيخ خدر، وتل عزير، وكرزرك. وفي الوقت ذاته انسحب البيشمركة تاركين سكان المنطقة وحدهم يقاومون باسلحتهم الخفيفة وعتادهم القليل، والذي نفد بعد ثلاث ساعات فانهار معه كل شيء».

مع انهيار المقاومة في تلك المناطق، اقتحم مقاتلو «داعش»، بنحو ٤٠ سيارة تلك المجمعات. وقتلوا كل من صادفوهم في طريقهم من رجال ونساء وحتى اطفال. ومع وصول اخبار الإبادة تلك إلى سنجار انهارت الاوضاع هناك حتى قبل وصول «داعش» إليها.

لم يتردد قلو في اتهام المسؤولين الامنيين بخيانة واجبهم: «لقد وثقنا بهم لكنهم خذلونا، لم يسلموا الاسلحة والذخائر لنا لنقاتل بها، ولم يقاتلوا فقد كانوا اول الفارين بعرباتهم العسكرية عبر سورية... لقد باعونا للدولة الإسلامية».

اسقط الرعب الذي صنعته المذابح و«الانسحاب المريب» للبيشمركة من مواقعها في المدينة ومقارة الاحزاب الكردية كل إمكانية للمقاومة في سنجار، واكتظ الطريق إلى الجبل بالعوائل فيما هرب آخرون باتجاه مدينتي دهوك وزاخو الكرديتين والحدود السورية، بينما عجزت مئات العوائل عن النزوح لعدم امتلاكها سيارات او لوجود مرضى وعجائز لا يقوون على المشي.

هؤلاء كانوا اول ضحايا «داعش» إذ تم خلال ساعات تصفية عشرات الشباب واخذ مئات النساء سبايا إلى معتقلات الدولة الإسلامية في بعاج وتلعفر والموصل.

خيانات وسلب ونهب

«قلة من الايزيدية نجوا من مذبحة مقاتلي داعش تلك الصباح»، يقول احمد علي، وهو كردي مسلم ترك سنجار حين لمح جاره يدل مجموعة من مقاتلي الدولة الإسلامية على بيوت الايزيدية والشيعة في منطقتهم المختلطة، فيما كان آخرون يسرقون ممتلكاتهم.

توجه علي من فوره إلى الموصل عبر طرق جانبية اوصلته مع عائلته بعد يومين إلى دهوك ومعه نورا ابنة جاره الايزيدي التي كانت الناجية الوحيدة من المذبحة التي طاولت عائلتها بعدما تاخرت في مغادرة سنجار.

نورا ذات ١٥ سنة، كانت مختبئة في كومة حطب حين اقتحم مقاتلون كانوا يتحدثون بلهجة غير عراقية، منزل عائلتها بعد الساعة الواحدة ظهراً وقتلوا شقيقها ووالدها العجوز اثناء مقاومتهم محاولة اخذ شقيقتها ووالدتها.

قالت وهي تخفي وجهها باطراف منديل كان يغطي رأسها: «لم يعد لي أحد، لا اعرف شيئاً عن شقيقتي ووالدتي، ولا عن اعمامي، ربما قتلوا أيضاً، لم يعد لي احد في هذا العالم».

قاسم عيدو، وهو احد الايزيديين القلائل الناجين من الموت، تحدث عن الساعات الاولى لسيطرة الدولة الإسلامية على سنجار: «طلبوا منا عبر مكبرات الصوت عدم مغادرة بيوتنا، مؤكدين اننا في امان، لم نكن نصدقهم لكن لم يكن هناك سبيل للهروب، ثم بداوا باقتحام البيوت... قتلوا كل شاب ايزيدي صادفوه، وعتقوا بعض الرجال، وتم خطف معظم النساء والقاصرات إلى مقار تمركز التنظيم».

قتل وانتحار

خلال ساعات تناثرت جثث عشرات الرجال ممن اعدموا بشكل كيفي او قتلوا وهم يدافعون عن بناتهم اللواتي اخذن سبايا، فيما ابقى التنظيم على العديد من العجائز ولم يتعرض لهن. لكن جارة عيدو، العجوز ريحان، لم تحتمل ما جرى لعائلتها «صعدت إلى الطابق العلوي ورمت بنفسها».

«حتى من حاول الاختفاء او الهروب عبر الطرق الجانبية لم يتمكن من النجاة بسبب الخونة من اهل المدينة الذين كانوا اعضاء في التنظيم»، يقول حسن شيخو: «إنها مصيبة كبرى ستشعل ثارات لن تخمد لسنوات من بعد رحيل داعش».

شيخو الذي اكد مغادرة المسلمين الشيعة والكثير من الكرد والعوائل المسيحية والتركمانية إلى جانب الايزيدية للمدينة، اتهم البعض بما اسماه «خيانة عهود الدم» التي بينهم، «شاركوا في الهجوم وارشدوا المسلحين إلى بيوتنا ومحلاتنا طمعاً بالغنائم، انا اعرف احدهم، طالما كان يزورني في منزلي ويأكل من طعامي».

صدمة السقوط

لم يحدث السقوط وما تبعه من انهيار بالصدفة، كما يرى عيسى شمو: «لقد هاجموا باعداد كبيرة من المقاتلين في منطقة رخوة عسكرياً واخترقوها، في الوقت الذي اطلقوا الإشاعات عبر العشرات من مؤيديهم لخلق الفوضى والرعب، ونجحوا في صنع شعور باستحالة مقاومتهم».

بينما كان هناك في تلعفر وتلكيف والحمدانية وبرطلة وهي مدن مسيحية سيطر عليها تنظيم الدولة الإسلامية لاحقاً، طريق للنجاة، لم يكن ذلك متاحاً في سنجار، ولم تكن هناك خيارات امام الايزيديين كالتي وضعت امام المسيحيين، فقد تمت محاصرة الجميع في الجبل وقطع مقاتلو الدولة كل الدروب المؤدية منه إلى العالم.

كان امامهم سبيلان للنجاة وسط كم الرعب الذي أعد لهم، إما الموت في الجبل جوعاً وعطشاً او الخروج ليصبحوا صيداً سهلاً لمقاتلي التنظيم الذين يجيدون القتال في المناطق المفتوحة حيث يمكنهم الهجوم والانسحاب.

ساعة الرعب

بعد يومين من سقوط سنجار، ترك مقاتلو الدولة الإسلامية فتاة في العشرينات من عمرها على مقربة من المدخل الشمالي للجبل، كان صوتها مسموعاً في كل اتجاه على رغم الانهيار الذي بدت عليه، كانت تلح وهي تشكي على بعض الرجال لقتلها «لقد اعتدوا علي، لعلها اشخاص عدة ثم تركوني هنا... ارحموني اقتلوني».

كان واضحاً انهم يريدون بث الرعب في الجبل كله، وقد نجحوا في ذلك، يقول شمو.

على بعد مئة متر من هناك توزع عدد قليل من الرجال بملابس بيضاء وعلى رؤوسهم اغطية حمر وهم يحملون اسلحة خفيفة في مهمة صعبة لمنع اقتراب مقاتلي «داعش» من الطريق المؤدي للجبل. في الجانب الآخر فعلوا مع فتيات اخريات اعتدوا عليهن ثم القوهن في مدخل الجبل.

لم تكن حوادث فردية. فقد انتحرت فتاة اخرى في مكان قريب، كان تم الاعتداء عليها وتركها تهرب، بحسب كمال شنكالي، الذي شهد عملية الانتحار، حين كان نازحون يحاولون منعها.

توضح الصور التي نشرها التنظيم نفسه في صفحات تابعة له، بعد ثلاثة ايام من اقتحام سنجار، عمليات إعدام جماعية لشبان مكتوفي الأيدي يتم إطلاق النار عليهم من الخلف باسلحة خفيفة. بعض الصور التي حملت عنوان «فتوحات نينوى» اظهرت بعض شباب المنطقة ومقاتلين من التنظيم ذوي لحى طويلة وشعر كث، ويظهر بعضهم بملابس افغانية، فيما تكشف وجوه آخرين انهم من بلدان شرق آسيوية.

سوق السبايا

صناعة الرعب لم تتوقف عند ذلك، فقد كشف نشطاء مدنيون ومسؤولون محليون وبرلمانيون، عن اختطاف أكثر من ٧٠٠ امراة ايزيدية في الاسبوع الاول لسيطرة تنظيم الدولة الإسلامية على سنجار، واستحداث سوق للجواري في الموصل، حدد سعر المراة فيه بـ ١٥٠ إلى ٥٠٠ دولار.

بحسب مسؤولين فإن السبايا الايزيديات جرى سعهن للمسلحين الأجانب، وتم تحديد اوقات البيع في الصباح والمساء بشكل يمنح الفرصة للمقاتلين «للتمتع بالنساء خلال إجازاتهم».

تلك المعلومات اكدها المتحدث باسم الهلال الأحمر العراقي محمد الخزاعي، قائلاً إن التنظيم الذي «يحتجز عشرات النساء الايزيديات والتركمانيات في مطار تلعفر بعد تصفية الرجال والأطفال، عرض نساء للبيع في احد اسواق الموصل».

حاول معد التحقيق طوال عشرة ايام التحقق من تلك المعلومات، لكن دخول المناطق التي يتمركز فيها التنظيم في الجانب الأيمن من مدينة الموصل حيث يتسوق المسلحون ويقومون بصفقاتهم التجارية بدت مهمة مستحيلة مع تكثيف التنظيم لدورياته.

في ١٣ آب اتصل شاهد عيان قروي موثوق به يسكن منطقة الساعة وسط الموصل بمعد التحقيق، واكد ان مسلحين انزلوا نساء من باص صغير ثم عرضوهن لمدة نصف ساعة وهن يرتدين ملابس سوداء، بينما انتشر في المكان نحو ثلاثين مسلحاً معظمهم كانوا من الأجانب والعرب، وبعدها جرى توزيع النساء على أكثر من عشر سيارات.

لم يؤكد الشاهد ان ما جرى كان صفقات شراء وبيع لنساء بيد انه كان متيقناً من ان النسوة وزعن على مجموعة رجال بعد عرضهن عليهم.

مسلمة أو جارية

نفى ابو عبد الملك، وهو مساعد امير في الدولة الإسلامية، حصول عمليات بيع وشراء لنساء، وانكر وجود اي سوق للسبايا في الموصل معتبراً ان كل ما يروج هو محاولات لتشويه صورة الدولة الإسلامية.

على رغم ذلك فإن ابو عبد الملك الذي تحدث مع معد التحقيق عبر الهاتف من الموصل عبر وسطاء، اكد أن من «حق مجاهدي الدولة الاحتفاظ بنساء الكافرين سبايا طالما رفضن دخول الإسلام، كما ان من حقهم الحصول على جزء من غنائم غزواتهم».

مساعد الامير الذي نفى علمه بوجود نساء ايزيديات اخذن سبايا، اقر بوجود نحو ٢٥٠ امرأة في الموصل «لكن ايزيديات قبل ان يدخلن الإسلام ويصبحن نساء حرات... خيرناهن بين البقاء في بيوت المجاهدين بكل ما في ذلك من التزامات شرعية كالمعاشرة والخدمة المنزلية، او إعلان إسلامهن ليصبحن حرات».

ابو عبد الملك اكد ان جميع الايزيديات «اخترن دخول الإسلام، واصبحن حرات يملكن الزواج او رفض من يتقدم لهن».

وعن مصير من اسلمن، قال: «جرى إسكانهن في بيوت امنة وتحت حماية الدولة وفق طلبهن لأنهن غير قادرات على العودة إلى عوائلهن خشية قتلهن بعد دخولهن الإسلام، ولأن ازواجهن اصبحوا حراماً عليهن».

في الرابع من آب كشفت منظمات ايزيدية ولجنة حقوق الإنسان في البرلمان الكردستاني عن خطف ٥٠٠ امرأة ايزيدية من سنجار، الرقم ذاته اكدته بعد يوم واحد النائبة في البرلمان العراقي فيان دخيل التي وقفت تحت قبة البرلمان تناشد العالم إنقاذ ٣٠ الف عائلة محاصرة في جبل سنجار من الموت عطشاً وجوعاً.

في العاشر من آب تلقت عائلة ايزيدية مكالمة من إحدى بناتها المختطفات، اكدت خلالها وجود اكثر من ٢٠٠ امراة محتجزة معها في موقع في قضاء البعاج جنوب سنجار، مبينة أن المعتقلات يعاملن كسبايا حيث يتم انتقاء الجميلات منهن «لخدمة الأمراء»، وطالبت الفتاة «بقصف المكان بالطائرات لكي تنتهي معاناتهن».

في الـ٢٠ من آب قال وزير حقوق الإنسان العراقية محمد شياع السوداني، أن «داعش» تحتجز اكثر من ٦٠٠ فتاة ايزيدية في بناية مدرسة الآثار في قضاء تلعفر، ونحو ٧٥ امرأة شيعية في قضاء سنجار، لكن الوزارة لم تورد ارقاماً في شان المحتجزين في سجن بادوش وفي مراكز الاعتقال في الموصل وقضاء البعاج وهي مراكز يحتفظ فيها مسلحو داعش بالمئات من اسراهم.

في اليوم ذاته رجح قائممقام سنجار ميسر حاجي صالح، ان يكون عدد المختطفات اكثر بكثير «هناك اكثر من الف امراة إيزيدية نقلن إلى خارج سنجار، وهناك قرى كاملة رهينة بيد داعش ولا يعرف مصير العوائل فيها».

مسؤولون آخرون في المدينة قالوا إن تحديد الأرقام وتوثيقها سيحتاج إلى وقت طويل فهناك أكثر من ٢٠٠ الف نازح ايزيدي تشتتت عوائلهم ولا يمكن إحصاء المفقودين منهم قبل مرور أسابيع، مؤكدين أن هناك مئات المحتجزات في مواقع مختلفة بينها مراكز اعتقال في سنجار ومطار تلعفر وغابات الموصل ومركز رياضي قرب فندق نينوى بالاس، فيما قدر علي إيزيدي الناشط المدني الذي يتابع إحصاء اعداد المعتقلات، الرقم باكثر من الفي إيزيدية معتقلة، قسم منهن في سجن بادوش في الموصل، واخريات في سينما تلعفر.

الدخول في الإسلام

القسوة التي تعامل بها مقاتلو الدولة الإسلامية مع اهالي سنجار، لم تكن مسبوقة في اية منطقة اخرى فرضوا سيطرتهم عليها، فقتل الايزيديين من الرجال والأطفال كانوا محكومين بالموت وكذلك المسلمون الشيعة وحتى المسلمون السنة من الكرد المقاتلين في صفوف البيشمركة.

كما لم تقتصر اوامر القتل على الايزيديين الذي رفضوا إعلان إسلامهم، بل شملت حتى الذين اعلنوا إسلامهم، بحسب العديد من الناجين.

مواطن خمسيني من سنجار أكد، من دون أن يكشف عن اسمه، انه اضطر مع عائلته لإعلان إسلامه في جامع في سنجار بعد ساعات من غزو المسلحين للمدينة، لكن مقاتلي «داعش» جاؤوا بعد يومين واخذوا اثنين من شقيقاته، قالوا له بانهما اصبحتا جاريتين، وبعد ساعات اعادوهما مجدداً.

قال الرجل بصوت مبحوح «لم استطع الاعتراض خوفاً من قتلنا جميعاً، لا نعرف كيف ننجو، حتى حين نصبح مسلمين، ياتي امراء ويقولون إن قتلنا حلال وإسلامنا باطل لأنه حصل من دون قناعة».

إذا كان القتل والسبي مصير الايزيديين الذين دخلوا الإسلام، فكان حتمياً قتل الممتنعين. ففي ظهيرة ١٥ آب طوق مسلحو التنظيم قرية كوجو التي تبعد ١٨ كلم جنوب سنجار ويبلغ عدد سكانها نحو ١٢٠٠ شخص، تم تجميع الأهالي في مدرسة القرية وجرى فصل النساء عن الرجال، ثم إعدام ٨٠ رجلاً بالرصاص، هذه ما اكدته معظم الروايات الرسمية.

لكن واحداً من ابناء القرية ومن اعيانها المعروفين قال لمعد التحقيق، إن اكثر من ٣٠٠ شخص قتلوا في ذلك اليوم هم كل الرجال بمن فيهم كبار السن، فيما تم اعتقال الأطفال والنساء واقتيادهم بالشاحنات إلى مناطق مجهولة.

الرجل الذي فقد ١٨ فرداً من عائلته هم ابناؤه واحفاده، قال إن مسلحي التنظيم هددوا في اليوم الأول لسيطرتهم على المنطقة بقتل جميع اهالي القرية إذا لم يسلموا اسلحتهم، والتهديد ذاته وجه لقرية الحاتمية القريبة، مع التعهد بترك القرية بسلام إذا سلمت سلاحها. جرى لاحقاً تسليم الأسلحة، لكن المسلحين عادوا بعد اسبوع وخيروا الأهالي بين إعلان إسلامهم او القتل.

رقم الضحايا ذاته أكده كريم سليمان المتحدث باسم المجلس الروحاني الايزيدي، مقدراً عدد الايزيديين الذين قتلوا منذ بداية الأزمة باكثر من ٢٥٠٠ شخص.

لكن قائممقام سنجار قال إن ٤١٣ شخصاً قتلوا في كوجو، وفق شهادات شيوخ القرية، هم كل من تجاوز عمره ١٣ سنة، وجرى دفنهم في مقابر جماعية، إلى جانب سبي ٧٠٠ امراة وطفل.

* ساهم في إنجاز التحقيق الصحافي سلام خالد. وأنجز هذا التحقيق بدعم من شبكة الصحافة الاستقصائية العراقية (نيريج)



«حدّ السيف لمن لم يدخل الإسلام»

■ ابو اسامة، وهو امير في «الدولة الإسلامية» تواصل معه كاتب التحقيق عبر وسطاء في مدينة الموصل، برر عملية قتل الإيزيديين بكونهم «كفاراً لا يعبدون الله»، ولانهم امتنعوا عن دخول الإسلام وأعلنوا رفضهم دولة الخلافة «فكان الحق عليهم ان يقتلوا وتسبى نساؤهم».

الامير قال ان دولة الخلافة «عاقبت المسلمين ممن كانوا في الجيش والشرطة ويوالون الحكومة الطائفية فكيف بمن ليس على الإسلام ويشكل مصدر خطر على دولة المسلمين باستنجاده بدول العالم».

ويعطي أبو اسامة لعمليات قتل الإيزيديين والسيطرة على سنجار بعداً شرعياً بحتاً، رافضاً اعتبار هدفها محصوراً بتوسيع دولة الخلافة «في القران نصوص واضحة، ان الدين عند الله الإسلام فقط، ومن لم يدخل الإسلام انما عليه حد السيف».

الأمير، رفض اللجوء الى المجادلة والحكمة والموعظة لإقناع الإيزيديين بدخول الإسلام بدل قتلهم، قائلاً «ليس هناك وقت للموعظة، هم يعلمون من زمن بعيد بدين الإسلام جيداً، الا ان قلوبهم الغافلة لم تستجب نداء الله».

هذا الإصرار على ابادة الإيزيديين واستخدام اقصى درجات القسوة معهم، وصفهما الباحث داري قادر بالمتوقعين: «فهم يصفون الإيزيدية بعبدة الشيطان، وينظرون الى مناطقهم كحلقة وصل وامتداد استراتيجية للمحافظات التي يسيطرون عليها في سورية».

يقول قادر الذي يتابع طريقة تعامل مقاتلي الدولة الإسلامية مع الاقليات ان «حفلات الذبح التي اجتهد في ابرازها امراء الدولة مع شيعة مدينة تلعفر القريبة، وفرمانات الموت والسبي التي حملها فقهاء الدولة والتي شملت معظم مكونات سنجار المتهمة بالكفر والشرك والعمالة للغرب، كانت كافية لدفع ٢٠٠ الف انسان للفرار بارواحهم من مدينة ظلت موطنهم الأول وملاذهم الأخير لقرون».

لكن رحلة الخلاص التي حملت نحو ١٥٠ الف انسان الى جبل سنجار، ووضعتهم في مواجهة الجوع والعطش وهجمات دولة الخلافة، قد تكون الأخيرة في تاريخ شعب شهد عشرات المذابح في ازمان مختلفة، وفق الياس شمو، الذي فقد ٢٣ فرداً من عائلته.

شمو قال وهو يحاول ان يمنع نفسه من البكاء: «فقدت كل عائلتي، وخسرت كل من اعرفهم في هذه المدينة... لقد كانت موطن ابائي وأجدادي واصدقائي المسلمين والمسيحيين واليوم هي مقبرة كل اولئك... لم يبق احد هناك».



حافلات عند سفوح جبل سنجار (رويترز)

تقارير

التراس (ultras) كلمة لاتينية تعني الشيء الفاقد أو الزائد وهي فئة من مشجعي الفرق الرياضة والمعروفة بانتمائها الشديد وولائها لفرقها والالتراس متواجدون بشكل أكبر بين محبي الرياضة في أوروبا وامريكا الجنوبية وأول فرقة لمشجعي الالتراس تم تكوينها بالبرازيل عام ١٩٤٠ وعرفت باسم "توركيدا"، وتميل مجموعات الالتراس في العالم كله إلى استخدام الألعاب النارية والشماريخ والقيام بالغناء وترديد الهتافات الحماسية لدعم فرقهم كما يقومون بتوجيه الرسائل إلى اللاعبين وكل فرق الالتراس تقوم بعمل دخلات خاصة في المباريات المهمة وكل ما يضفي بهجة وحماسا في كرة القدم.

ULTRAS AHLAWY

Together Forever

2007

العالم السرى لجيش الألتراس فى مصر

شوبير حاول تشويه صورتهم أمام الرأى العام لأنهم تخلوا عن الدفاع عنه أمام جماهير الزمالك

حاربهم النظام السابق فدفعهم بقوة للمشاركة فى الحياة السياسية واسقاط النظام فى ثورة يناير

يبدو أن ما حدث لشباب الألتراس والنادي الأهلي في بورسعيد لن يمر مرور الكرام خاصة أن الألتراس الأهلاوي يتعاطفون مع بعضهم كأنهم أبناء البيت الواحد وفقدوا من بينهم [illegible] قتيلا وكلهم مصريون ويردد شباب الألتراس ردا على ما حدث شعارات القاتل يقتل ولو بعد [illegible] وأهم ما نادت ثورية يطالبون بعد الإخوان [illegible] والسرية من أجل مستقبل أفضل ولأن هذا هدفهم لذلك يرغب النظام الفلولي في التخلص منهم والإدراج باسمهم تحت أي مسمى لأعمال الشغب والفوضى التي تحدث في البلاد حتى يتعامل معهم باقي الشعب على أنهم مخربون وبالتالي يرتاح منهم النظام السابق.

أكثر ما أزعج الألتراس في هذه اللحظات الحزينة بعد مجزرة بورسعيد هو قيام البعض بربط الأوضاع والأحداث التي تجري بمحيط وزارة الداخلية في منطقة باب اللوق بالقاهرة، ورغبة الألتراس في الانتقام واسترداد حقوق الضحايا، إلا أن رابطة الألتراس المصري نشرت بيانا عبر صفحتها على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" تؤكد فيه أن تلك الأحداث ليس لها أي علاقة بجماهير الألتراس.

الألتراس المصري ليس لهم أهداف تخريبية في البلاد وهم مشجعون من الطراز الأول لمباريات كرة القدم. فتاريخ بداية الألتراس في مصر تعود إلى شهر فبراير ٢٠٠٧ عندما اجتمع مجموعة من الأصدقاء بأحد أماكن منطقة الزمالك وكانوا يشاهدون كليبات وصور للألتراس العالمي ويحلمون باليوم الذي يرون فيه التراس في مصر أسوة بالأندية والفرق العالمية الكبيرة وقرروا أن تكون البداية لأول دخلة للألتراس في تاريخ مصر عن طريقهم وبالفعل تم التخطيط لدخلة السنة واحد الذي فاز فيه الأهلي على الزمالك ١/٦ من هذا التاريخ وفي ٢٥ مارس ٢٠٠٧ اكتمل تصميم أول بانر لألتراس أهلاوي ويوم ١٢ أبريل ٢٠٠٧ كان أول ظهور له في المدرجات وظهور البانر لأول مرة في مباراة الأهلي وإنبي في الدوري العام المصري وسمت يومها مشاكل كثيرة مع الأمن بسبب دخول البانر الاستاد وذلك لرفض الأمن تعليق البانر وفي النهاية نجح الألتراس في تعليق البانر رغم المشادات الكبيرة مع الأمن.

١٤ ابريل ٢٠٠٧ أول ظهور لألتراس أهلاوي في الصالات المغطاة في نهائي دوري الكرة الطائرة بالصالة المغطاة في استاد القاهرة وفي ٥ مايو ٢٠٠٧ اعترض التراس جماهير الاهلي بشكل محترف يليق بهم على تصرفات إدارة الاهلي في تذاكر مباريات برشلونة ورفعوا ثلاثة لافتات سوداء اعتراضية في أول عشر دقائق من مباراة بتروجت في كأس مصر ولم يتم توجيه إهانات أو كلام خارج وتم التعامل مع إدارة الأهلي بكامل التقدير والاحترام وتم توجيه العتاب بشكل متحضر جدا وكان قدوة لأي جمهور في ٢٠ مايو ٢٠٠٧ كانت أول سهرة في تاريخ الألتراس لأول دخلة في تاريخ الحروب واقيمت السهرة في بارك الجامعة الأمريكية وفي يوم ٢٥ مايو ٢٠٠٧ كان اول ظهور خارج القاهرة لألتراس اهلاوي وكانوا يحتفلون بالدوري في الأراضي الاسماعيلاوية وفي يوم ٢ يوليو ٢٠٠٧ تولى التراس اهلاوي دخلة نهائي الكأس قبل المباراة بيومين وذلك بعد تخلي بعض الأشخاص عن وعودهم بعمل دخلة تليق بنهائي الكأس وكان تحدياً امام الالتراس الاهلاوي حتى لا يكون النهائي بلا دخلة. وفي ٢٨ اغسطس ٢٠٠٧ كانت أول دخلة خارج القاهرة لالتراس اهلاوي في استاد المكس بالاسكندرية في مباراة الاهلي وحرس الحدود في الدوري وكانت دخلة المرحوم اللاعب محمد عبدالوهاب في ذكراه الاولى. وفي ١٧ سبتمبر ٢٠٠٧ وفي نوفمبر ٢٠٠٧ قام التراس أهلاوي بإشعال ٣٠ صاروخاً في وقت واحد وهو رقم قياسي لم [illegible] أهلاوي في نهائي دوري أبطال أفريقيا [illegible] محاطين بألوان أفريقيا الثلاثة الأحمر والأخضر والأصفر وذلك كان رمزا للمنافس صاحب الرصيد الحالي من البطولات أنه يلاعب بطل القارة بدون منازع. وفي يوم ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٧ كان أول ظهور لألتراس ديفلز (الألتراس السكندري).

الألتراس منذ ٢٥ من يناير ٢٠١١ لم يعد رابطة لتشجيع رياضي، ولا قوة رياضية. منذ أن نزل شبابه في الساعات الأولى من يوم ٢٦ يناير إلى [illegible] الثوار في موقعة الجمل، التي حاول فيها رجال مبارك الانقضاض على الثورة. وقرر شباب الألتراس المشاركة في معظم المليونيات والفعاليات الثورية منذ سقوط مبارك وحتى أحداث محمد محمود ومجلس الشعب وماسبيرو، بل حتى تظاهرات المواجهات البرلمانية الأخيرة.

بالرغم من كثرة عدد الألتراس وتنظيمهم إلا أنهم لم يتحولوا إلى حزب سياسي أو قوة سياسية بالمعنى الأيديولوجي الضيق، لكنهم اعتبروا أنفسهم قوة وطنية، تعبر عن نبض الشارع والوطن وثورته.

دخل «ألتراس الأهلي» في مواجهات سياسية مع قوى كبيرة وصدامات عنيفة مع نظام مبارك في عز جبروته في أيام الثورة الأولى، ثم صادم فلوله وتصادموا مع الداخلية. وأخيرا دخلوا في مواجهات مع من يدافعون عن استمرار حكم العسكر.

شباب الألتراس، المشهود لهم بالثقافة والوعي، يعتبرون أن كل معركة بين شعب وسلطة على أرض مصر هي معركتهم، وأن انحيازهم للشعب لا يحتاج إلى كثير فلسفة، وأنه لا يجوز لهم أن يظلوا في الكرة والملاعب، بينما بلدهم في معركة مصير.

الجدير بالذكر أن أحمد شوبير النائب السابق لمجلس الشعب (حزب وطني) قام بشن أكثر من هجوم على شباب الألتراس في حلقات متتالية بقناة الحياة واتهمهم بتعاطي المخدرات والسكر والعربدة وممارسة الجنس ويعود الصراع بين شوبير والألتراس إلى مارس ٢٠٠٧ عندما هتف ضده جماهير الزمالك وقاموا بإهانته وذلك بعد أن طالب شوبير بمعاقبة عمرو زكي لأن الكاميرا ضبطته وهو يتفوه بكلمات قرأها شوبير بلغة الشفايف، وعلى الهواء قال شوبير ردا على هتاف جمهور الزمالك ضده: إذا كان رب البيت بالدف ضاربا وكان يقصد ممدوح عباس رئيس نادي الزمالك وهو رب البيت، فجمهور الزمالك وهم أهل البيت، فهتفوا الهتاف الشهير ضده. [illegible] والتصل شوبير بأحد [illegible] شباب رابطة التراس أهلاوي، وطلب منه أن يرد جمهور الألتراس عنه، فكيف يترك جمهور الأهلي أحمد شوبير ليكون عرضة لسباب جمهور الزمالك، ورفض الشباب أن يتم استخدام جمهور الأهلي أو الألتراس لتخليص حسابات بين هذا وذاك.

قبل هذه الواقعة وبالتحديد في منتصف يناير ٢٠٠٧ طلب أحمد شوبير من خالد شاكر رئيس رابطة مشجعي الأهلي أن يجلس مع قيادات الرابطة لتوضيح بعض الأمور التي يرى مشجعو الأهلي أن شوبير بصفته نائبا لرئيس اتحاد الكرة لاتخاذه دوما مواقف تضر بالكثير من مصالح الأهلي، وقال شوبير: إن كل شيء في اتحاد الكرة يتم رغما عن أنفه وأنه وحده الذي يحارب الفساد داخل الاتحاد ولكنه يواجه مافيا فساد برأسها سمير زاهر

وطلب شوبير أن تقوم الرابطة بمساندته، فكيف لا ترفع لافتة في المدرجات تشكره بالاسم! وجاءه الرد صاعقا من أحد قيادات الرابطة من أنه لو قامت الرابطة برفع لافتات لكل لاعب سابق بالأهلي ما وجدت قماشا لكتابة اسم الأهلي عليه، وأن أغلب قيادات الأهلي هوجمت ولم ترفع لها الجماهير لافتات مساندة وعلى رأسها المايسترو الراحل صالح سليم

بعد واقعة رفض شباب الألتراس مساندة شوبير ضد جمهور الزمالك، بدأ شوبير حرباً شخصية على قيادات الألتراس، فشوه صورتهم في مقالات له ببعض الصحف وأعلن إن لم يوقف الأمن الألتراس فسيكون هناك قتيل في استاد القاهرة، ومرت مباراة دوري الأبطال بسلام، وتلتها مباراة السوبر المصري بين الأهلي والزمالك وكرر شوبير نفس ما قاله وانتهت أيضاً بسلام ليثبت للجميع كذب ادعاءات شوبير، الذي حاول تجييش كل الجهات لمحاربة عدو لا وجود له إلا في مخيلته [illegible] وأيضا وصل الحال بشوبير أن يجمع مجموعة مشجعين رفضوا تمجيده وشتائمه برفع لافتات باسمه وسب من يسوء رأسا برأس معه، لأن هؤلاء المشجعين المحبين لناديهم رفضوا أن يكونوا مثل الهتيفة الذين يسيرون وراء شوبير ليهتفوا باسمه في مؤتمراته وندواته الانتخابية

لا يدري شوبير وقتها أن هناك شرفاء لا يستغلهم أحد ولا يتحركون إلا بما تمليه عليه ضمائرهم ومصالحهم هم لا مصالح ورغبات غير المحرمة. اتهم شوبير شباب الألتراس بالشذوذ، وإدمان المخدرات بأنواعها، وبأنهم يشربون الكحوليات، بل إنهم سيتسببون في إخراج مصر من تصفيات كأس العالم. كفرهم شوبير واتهمهم بالإلحاد، لأن بعضهم يحب المغني الجامايكي بوب مارلي والثائر الأمريكي تشي جيفارا، ونشر لهم صوراً من حجرات شقق خاصة وشاليهات، بعد أن تجسس على أمورهم الشخصية عن طريق هاكر. فالحوارات أخذت من الأجهزة الشخصية لهم وقام بنشرها رغم أنها أمور شخصية لا علاقة لها بالرياضة، وعندما لم تفلح محاولاته قام بتحريض الشرطة عليهم فطاردوهم في عصر السفاح حبيب العادلي والشاعر وكانت الشرطة في هذا العصر تتلذذ بإذلالهم من خلال اعتقال قيادات منهم والتفتيش المهين لهم عند البوابات وكانت هذه الطرق بداية لتحول فكر شباب الألتراس من أسلوب رياضي لفكر سياسي منظم يفجر الثورة ويشارك بها ويستمر حتى تتحقق المطالب.

هروب لاعبي الأهلي في مباراة الأهلي والمصري

كمال فؤاد

kamalfouad4@hotmail.com

كلمات متقاطعة

أفقي:

١. واد مقدس- اخت النبي صلى الله عليه وآله من الرضاعة

٢. اقل العقوق- خوف

٣. الصوف المتطاير (معكوسة)- خلق الانسان فيه (معكوسة)

٤. الرمح الطويل (معكوسة)

٥. صرح الله بعدم خوفه منها- اطلع (فعل امر)

٦. مايوجب الغسل لحاضر الميت (معكوسة)- تعب (معكوسة)

٧. للنداء (معكوسة)- ثوابه عشر حجج (معكوسة)

٨. اكرامه واجب (معكوسة)- قريب لمنظره

٩. من الأثام (معكوسة)- عقل (معكوسة)- تمنع

رأسي:

١. قاتل في الحروب مضى للعمر- لاكبير ولا صغير

٢. انطق به

٣. اجنه حب الحسين عليه السلام

٤. قبض قبضة من اثر الرسل

٥. عطاء الله للنبي صلى الله عليه واله حتى يرضى- اضمر وكتم وخصوصا العداوة

٦. الكلا والعشب

٧. حق الرسالة للقربى- مروان بن الحكم

٨. رد صغير السن (معكوسة)- تصرف نهى الله عنه وخص به اليتيم

٩. من لا يجد له وريث من ابنائه

حل مسابقة العدد الماضي

	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
1	ف	ل	س	ط	ي	ن	■	ت	ى	ع
2	■	■	ن	و	■	د	ر	و	ب	■
3	م		■	ك	ر	ل	ا	ت	ي	ا
4	و	■	ب	ي	■	ن	و	■	ل	م
5	ز	ي	ت	و	ن	■	ح	ر	■	■
6	■	م	ر	■	م	ا	■	ب	ع	ر
7	■	ا	■	ب	■	ن	ا	و	ي	د
8	ا	م	د	ر	م	ا	ن	■	■	ب
9	ل	■	ي	■	ي	د	م	ر	■	ل
10	ي	د	ن	ر	■	ي	و	ا	د	ا

سودوكو

6	8		3	5				
				1			2	
		7		6		9		
1								
3		5		9		1		2
								9
		3		2		8		
	6			7				
				4	5		3	1

قانون اللعبة

اللعبة عبارة عن جدول مكون من ٩ جداول و كل جدول مكون من ٩ خانات المفروض هو أن ترتب الأعداد من ١ الى ٩ على شكل عمودي أو افقي و لا يجب ان يوضع رقم معين مكرر مرتين